تداخل الأجناس الأدبية في النقد المعاصر

الأستاذ: محمد عـــــروس
قسم الآداب و اللغة العربية
جامعة محمد خيضر- بسكرة (الجزائر)

ملخـــــص:

الهدف من هذه الدراسة هو الكشف عن الأسس النقدية لظاهرة تداخل الأجناس الأدبية. ذلك أن النص الحداثي وما بعد الحداثي ـ شعرا ونثرا ـ نصّ إشكالي, يتميز بتداخل الأجناس الأدبية. وهو ما يجعلنا نبحث عن الأسس النقدية والمفاهيم النظرية التي يمكن أن تتأسس عليها هذه الظاهرة الإبداعية, وتكون بمثابة مداخل للقراءة النقدية, وتتمثل هذه الأسس في مقولة: الحوارية, وتعدد الأصوات, والنص, والتناص.

Résumé:

Le but de cette étude, c'est de présenter les bases critiques du phénomène de l'interférence des genres littéraires, ce qui caractérise le texte moderne et postmoderne (poésie et prose) qui est considéré comme texte problématique, c'est la raison pour laquelle on cherche les bases critiques et les notions théoriques sur les quelles se fond ce phénomène génial, qui sera tenu comme introduction à la lecture critique. Ces bases sont représentées par le dialogisme, la polyphonie, le texte et l'intertextualité.

لحق الإبداعَ الأدبيَّ جملةٌ من التحولات تأرجح فيها بين نقاء الجنس وتداخل الأجناس وفي كل تلك التحولات كان سؤال النقد حاضرا دائما، فهو يساءل الظاهرة الإبداعية ويبحث في أسسها، ويحاول الكشف عن أبعادها وجمالياتها.

وبالمقابل، كان فعل التجاوز المستمر لحدود الجنس الأدبي والثورة عليه، وتحطيم قيوده مجالا رحبا لحيوية الإبداع، حتى صار بمثابة اعتقاد أن الإبداع الجدير بالبقاء هو الإبداع المتفرد، الذي يكتسي تفرده بتفاعله الإيجابي مع ثنائية الخرق والإتباع. فهو يتميز بالسكون والهامشية بمقدار إتباعه، ويتعلق بالحركة والمركزية بمقدار ما يخرق من قواعد، ويتجاوز من حدود، ويشكل لهوية جديدة.

ومن أهم مجالات الخرق التي يسعى البحث إلى الكشف عن أسسها وأبعادها وجمالياتها، تبرز ظاهرة تداخل الأجناس في الشعر الجزائري المعاصر. هذه الظاهرة التي يعتقد البحث كفرضية مبدئية أنها جديرة بالدراسة لما أحدثته من تحول في طبيعة النص الشعري، وما فتحته من آفاق لهذا النص.

وفي محاولة لوضع الأرضية المعرفية التي يمكن أن تستند إليها الظاهرة الإبداعية المتمثلة في تداخل الأجناس الأدبية، في النص الإبداعي عموما، والنص الشعري على وجه الخصوص ـ بكونه مجال دراستنا ـ وفي ظل الجدل القائم بين ثنائية الإبداع والنقد، فإن الدارس يمكنه أن يتبيّن جملة من الأفكار والرؤى والتصورات، التي يمكن أن تعتبر أسس ارتكاز وتأطير تنظيري، يجعل ظاهرة تداخل الأجناس الأدبية لا تقف على فراغ معرفي، وإنما تستند إلى مرتكزات معرفية، تدعم هذا البناء، وتعلي من قيمته الفنية.

ولذلك نتساءل: ما هي أسس تداخل الأجناس الأدبية ؟

وما هي العلاقات التي تربطها بالنقد المعاصر ؟

وكيف يمكن لهذه الأسس أن تمد ظاهرة تداخل الأجناس في الشعر الجزائري المعاصر بآليات قرائية ؟

بالنظر إلى مناهج النقد المعاصر، يتبين أن تداخل الأجناس في النص الإبداعي المعاصر – والشعر جزء منه- يتأسس على جملة من المقولات والمفاهيم النقدية، التي تسعى إلى وضع

إطار تنظيري تفهم من خلاله. وتكون بمثابة مرتكزات يستند عليها الإبداع، ونوافذ يمكن أن يطل منها القارئ على تضاريس النص.

وتتمثل هذه المقولات التأسيسية في: الحوارية وتعدد الأصوات، النص، التناص. وليس الغرض من البحث تفصيل القول في هذه المقولات، وإنما الكشف فقط عن العلاقات التي تربط تداخل الأجناس بهذه المقولات.

أولا: الحوارية وتعدد الأصوات

تعتبر الرؤية النقدية لميخائيل باختين Mikhail Bakhtin، والمتمثلة في الحوارية وتعدد الأصوات، المرتكز المعرفي الذي أسست عليه جوليا كريستيفا Julia Kristeva مفهوم التناص. وبموجب هذه الرؤى النقدية أمكن الحديث عن إبداع لا يتسم بالخصائص الفنية الموروثة عن المرحلة الكلاسيكية، وإنما يتميز بخصائص جديدة، ويبشر بمدى إبداعي قوامه خلخلة السائد، والإبداع خارج حدود الأجناس الموروثة. وذلك ما نظر له باختين عند دراسته لأعمال دوستويفسكي Dostoïevski.

وعليه فإن فكرة التداخل تجد جذورها في هذه الرؤى النقدية عند باختين. ولذلك نتساءل: ما المقصود بالحوارية وبتعدد الأصوات ؟ وكيف يمكن أن يتأسس عليهما مفهوم التداخل بين الأجناس الأدبية ؟

1/ الحوارية

أطلق ميخائيل باختين مصطلح الحوارية dialogisme على العديد من الظواهر الفنية والمجالات المعرفية؛ فجعله مرّة صفة للكلمة ومرّة صفة للرواية، ومرّة صفة للعلاقة.

أ) الحوارية باعتبارها صفة للكلمة

أورد ذلك ميخاييل باختين Mikhail Bakhtin عند دراسته لأنماط الكلمة النثرية عند دوستويفسكي Dostoïevski، حيث اعتبر أن المادة الرئيسة لدراسته تتمثل في << **الكلمة المزدوجة الصوت، هذه الكلمة التي تتولد حتما ضمن ظروف العلاقات الحوارية؛ أي في ظروف الحياة الحقيقية للكلمة، إن علم اللغة لا يعرف مثل هذه الكلمة المزدوجة الصوت. غير أن هذه الكلمة بالذّات، كما نعتقد هي التي يتعين عليها أن تصبح من**

المواد الرئيسة في دراسات ما بعد علم اللغة >>[1].

ومنه فالتبادل الحواري للكلمة، يجعلها محملة بالعديد من المعاني المعجمية المرتبطة بها أساسا، مثلما تكون مجالا يفرغ فيه القارئ أو المتكلم أو السامع تصوره للمعنى، من خلال ما يقيمه بين الكلمة ومختلف السياقات الثقافية المصاحبة للنص الذي وردت فيه. إذ أن << **لكل كلمة وجهين. فهي بقدر ما تتحدد بكونها صادرة عن مستعمل، تتحدد أيضا بكونها موجّهة إلى مستعمل آخر. إنها تشكّل بالضبط حصيلة التفاعل بين المتكلم والسامع**>>[2].

وبهذه العلاقة التي تنسجها الكلمة، في حوارية بين المتلقي وما يحمله من رؤى ومعارف وأفكار، وبين المتكلم وما يودّ قوله باختيار هذه الكلمة أو تلك، يتم تفعيل الحضور القصدي للأفكار عبر وساطة اللغة. وينتقل التصور اللساني للفعل الكلامي من اعتباره مجرد حقيقة لغوية تدرس لذاتها، إلى اعتباره حقيقة لغوية، واجتماعية، ونفسية.

ولذلك عمل باختين على أن تحول اللسانيات وجهتها، وتغير موضوع درسها، وتنقل هذا الدرس من الفعل الكلامي المغلق، إلى انفتاح هذا الفعل الكلامي على مختلف المجالات والسياقات. << **فالظاهرة المجتمعية للتفاعل اللفظي هي التي تكون الجوهر الحقيقي للسان، وليس النظام المجرد للصيغ اللسانية، ولا التحدث المعزول، ولا الفعل النفسي العضوي لإنتاجه. وهكذا يشكّل التفاعل اللفظي الواقعة الأساسية للسان**>>[3].

وباعتبار باختين مبدأ حوارية الكلمة، ينقل الدرس اللساني من دائرته الضيقة، وهي الاهتمام باللغة لذاتها ولأجل ذاتها، كما اعتقد فيردينان دوسوسير Ferdinand Dossoser ومن نحا نحوه، إلى اعتبار الكلمة في تفاعل مع كل الظواهر الاجتماعية، وتداخل مع كل حقول المعرفة الإنسانية. وهو ما يجعل فكرة الحوارية اللفظية مؤسسة لفكرة التداخل كهيكل تصوري، يمكن أن تبنى عليه فكرة تداخل الأجناس كواقع نصي. إذ الكلمة حوارية بطبيعتها بحسب ما يتداخل في مجالها المعجمي، أو الاستعمالي تداخلا يصل حدّ التناقض.

ب) الحوارية باعتبارها صفة للرواية

مثلما ارتبطت الكلمة بمبدإ الحوارية في الحقل اللساني على المستوى المعجمي، وفي الحقل التداولي على مستوى الاستعمال والتواصل، فإنها ارتبطت بالرواية كما عند دستويفسكي من خلال النتائج التي توصل إليها ميخائيل باختين.

إذ أن << **رواية دستويفسكي ذات طابع حواري** >>[4]، وذلك عبر الكيفيات التي تُبرزُ فيها الشخصيات الروائية أقوالها، وما تستحضره من نصوص، وهي تعبر عن الأفكار التي تريد تبليغها. وهو استحضار يتعدى النصوص المنتمية لنفس الجنس الأدبي، إلى أجناس أدبية أخرى. إذ يَعتبر ميخائيل باختين أن الرواية << **تستخدم بصورة مزدوجة الأشكال الحوارية الأكثر تنوعا لنقل أقوال الآخر، التي تتجلى في الحياة اليومية وفي العلاقات الأيديولوجية غير الأدبية. في المقام الأول نجد كل هذه الأشكال ممثلة ومعادا إنتاجها داخل التعابير المألوفة والأيديولوجيات التي تصدر عنها الشخصيات داخل الرواية، كما نجدها ضمن الأجناس المدرجة كالمذكرات والاعترافات والمقالات الصحفية، وفي المقام الثاني تلحق بهذه الأشكال كل الأشكال الحوارية لنقل أقوال الآخر**>>[5].

بهذا التحديد لحوارية الرواية، اتسع مفهوم الحوارية ليشمل تداخل النصوص المنتمية لجنس الرواية. ويمتد إلى تداخل الأجناس الأدبية، وذلك ما لفت الانتباه إليه رومان سلدن Roman Selden بقوله: << **وأنسب وصف لموقف باختين أن لغته تحررية، فهو موقف يحتفي أبلغ الاحتفاء بالكتاب الذين تتيح أعمالهم أقصى درجة من الحرية للأنساق المختلفة.**>>[6]

إن صفة الحوارية لم تعد متعلقة بالحوار بين الشخصيات، بل توسعت لتصبح مبدأ يعبّر عن تداخل النصوص وتداخل الأجناس. ويتحقق ذلك بعدّة آليات منهجية أهمها التهجين، الذي يتعدّى تهجين الألفاظ إلى تهجين الأجناس، << **فكل رواية هي في كليتها من حيث لغتها والوعي اللساني المستثمر داخلها جنس ممجن** >>[7]. وعبر التهجين يتم جلب الخصائص الفنية لجنس أدبي إلى جنس أدبي آخر. ويكون تداخل الأجناس ظاهرة إبداعية، تتأسس على مبدإ الحوارية من خلال التهجين.

ج) الحوارية باعتبارها صفة للعلاقة

إنّ العلاقة بين الشخصيات الروائية حسب باختين ومن خلال أعمال دوستويفسكي تتسم بأنها علاقة حوارية. << **فالكلمة تتمتع بصفة استثنائية داخل بنية العمل الأدبي، إن أصداءها تتردد جنبا إلى جنب مع كلمة المؤلف، وتقترن بها اقترانا فريدا من نوعه، كما تقترن مع الأصوات الكبيرة القيمة، الخاصة بالأبطال الآخرين** >>[8].

ما يمكن التوصل إليه من خلال مبدإ الحوارية؛ سواء تعلق بالكلمة أو العلاقة أو الرواية، أنه يؤسس لفكرة التداخل. ويتسع من كونه مجالا لتداخل النصوص، والتحاور بين الشخصيات، إلى كونه مجالا لتداخل الأجناس الأدبية.

2/ تعدد الأصوات

يعتبر باختين أن << **دوستويفسكي هو خالق الرواية المتعددة الأصوات، لقد أوجد صنفا روائيا جديدا بصورة جوهرية**>>[9] ويقصد << **بالرواية المتعددة الأصوات Roman polyphonique هو الجنس الذي ينحدر من أصوات عدّة، من أجناس قريبة وبعيدة، أجناس تنتمي وإياه إلى السلالة الأجناسية ذاتها وأخرى تعود إلى أصول وأعراق أجنبية عنه**>>[10]، ولذلك فهي لا تخضع للقواعد الجاهزة، وإنما تتميز << **بتعددية الأصوات polyphonique** >>[11]. وفي هذا التعدد، يحدث التداخل بين الأصوات. ويبلغ تعدد الأصوات وتداخلها مداه من خلال الكرنفالية، التي جسدتها أعمال دوستويفسكي. حيث تتحطّم كل التقاليد الفنية الاجتماعية الموروثة وتختلط الأدوار، وتتداخل الأجناس.

ليس ذلك فحسب، وإنما تبين لباختين، أن ظاهرة تعدد الأصوات لا تتعلق فقط بالرواية، وإنما تتعدى ذلك إلى مختلف الأجناس الأدبية، والفنون الإبداعية. يقول ميخائيل باختين: << **يساورنا الاعتقاد أن هناك مجالا للحديث مباشرة حول تفكير فني متعدد الأصوات وخاص يتجاوز حدود الصنف الأدبي الروائي** >>[12]. وذلك ما جعلنا نحاول بحث مسألة تداخل الأجناس في النص الشعري المعاصر.

إن ما يمكن التوصل إليه فيما يتعلق بالحوارية وتعدد الأصوات، هو أنهما يمكن أن يعدا مرتكزا معرفيا، يتأسس عليه مفهوم التداخل.

ينطلق مفهوم التداخل من جملة المعاني التي يمكن أن تحملها الكلمة الواحدة، ويمتد إلى أن يرتبط بالعلاقة بين الكلمات أو الشخصيات في حوارية تتميز بتعدد الأصوات.

و يتجاوز مبدأ الحوارية وتعدد الأصوات الأعمال الروائية، إلى بقية الأجناس الأدبية. ويكون الشعر المعاصر فضاء للحوارية وتعدد الأصوات بما يحضر فيه من سرد ومشهد، وفعل درامي، وشخصيات، وأحداث، وحوار، وفضاء.

ثانيا: النص

لم يعد مفهوم النص متعلقا بذلك الأثر المكتوب الذي تتناوله الأيدي وتداوله، أو المحفوظ الذي تتعاوره الألسن وتتناقله. وإنما أصبح للنص مفهوم يتجاوز ذلك. وفي ذلك التجاوز توسيع لمفهومه، حتى يكون قادرا على التعبير عن الصيغ المستحدثة للإبداع، والرؤى المتعلقة بالنقد.

ويُعَدُّ رولان بارت Roland Barthes من بين الذين أولوا النص أهمية خاصة في دراساته النقدية. وتعتبر الأفكار النصية التي أسس لها أرضية خصبة، يمكن أن نتخذها مرتكزا معرفيا للنص الشعري المعاصر القائم على ظاهرة تداخل الأجناس.

يُعَرف النّص بأنه<< **نسيج من الكلمات يترابط بعضه ببعض كالخيوط التي تجمع عناصر الشيء المتباعدة في كيان كلي متماسك**>>[13]. وهو خاضع من وجهة نظر علم النص إلى السبك والانسجام. ولا يمكن أن يحمل المنجز الكلامي، مهما كانت طبيعته صفة النص إلا إذا حمل من عناصر السبك ما يحقق به وجوده التركيبي، بمراعاة قواعد الترابط النحوي من خلال علاقات المجاورة، وما حمل من عناصر الانسجام على مستوى المعنى والدلالة التي يستخلصها المتلقي عن طريق التخزين والاسترجاع[14]. مما يفتح آفاقا للقراءة والتأويل، في وحدة متكاملة بين مكوّنات النص.

وباعتبار النص نسيجا من العلاقات، وهو في رأي هاليداي Michael Halliday << **الكلام الذي يقال أو يكتب من أجل أن يكون كيانا متحدا،**

ولا عبرة بطوله أو قصره>>[15]، فإن الدراسات المعاصرة – على الأقل- للإنتاج الأدبي، حاولت الابتعاد عن محاولات تصنيف الأعمال الأدبية، واستبدال ذلك بإطلاق صفة (تسمية) نص على الإنتاج الأدبي، مهما كانت طبيعته الإبداعية، أو خصائصه الفنية، أو التقاليد الإبداعية التي اتبعها، أو تجاوزها، وخصوصا الإنتاج الإبداعي ذا الصبغة التجاوزية.

وقد اعتبر رولان بارت أن النص<< **لا يمكن أن يكون متضمنا في تسلسلية ولا حتى في مجرد تقسيم للأجناس، بل إن قوته على العكس من ذلك (أو بدقة) تكمن في تهديم التصنيفات القديمة** >>[16]. لأن التقسيمات القديمة أساسا قائمة على نقاء الجنس الأدبي، فلكل جنس أدبي خصائصه الفنية، التي يجب الوفاء بها عند الإبداع، والتقيد بتقاليدها عند النقد. أما النص الإبداعي المعاصر – شعره ونثره- فإنه يحمل من التداخل بين الأجناس ما يجعله منفلتا عن التصنيف، متجاوزا للحدود الإبداعية، والتقاليد الفنية التي كان يُعتقد بقدسيتها.

وعليه وجب أن يُنظر إلى النص على أنه متعدد[17]، فهو متعدد بما يحضر فيه من نصوص أخرى على سبيل التناص. وهو متعدد بتضخم دواله. وهو متعدد بما يبرز فيه من تداخل أجناس مجاورة أو فنون أخرى قولية أو بصرية.

وبذلك اعتبر بارت أن<<**النص منسوج تماما من عدد من الاقتباسات ومن المراجع ومن الأصداء: لغات ثقافية (وأي لغة ليست كذلك) سابقة أو معاصرة تتجاوز النص من جانب إلى آخر في تجسيمة واسعة**>>[18]. والنص بهذا المفهوم المتعدد يمثل أحد الأسس التي تستند عليها ظاهرة تداخل الأجناس. فهذا المفهوم المتعدد للنص، هو ما يُمكّن الدارس من أن يطلق على المنتوج الثقافي الذي يبرز فيه تداخل الأجناس مصطلح نص. ويكون مفهوم النص مرتكزا معرفيا لتداخل الأجناس. ذلك أن النص من هذا المنطلق – منطلق التعدد- بمثابة علامة تبحث عن العديد من التأويلات << **بحركة متسلسلة للتفكيك والتداخل والتنوع**>>[19].

فإذا كانت غاية المبدع أن يُسوّق بالكلام منتوجا ثقافيا، بعمليات الاختيار والتأليف، وصولا إلى الكتابة، التي يتجسّد فيها فعل التركيب، ونكون ساعتها أمام منتج

لغوي يمكن أن نطلق عليه مصطلح نص. فإن الحركة المضادة للكتابة، والمتمثلة في قراءة النص، والوصول إلى بعض التأويلات ينطلق – حسب رؤية بارت- من التفكيك، وذلك بمعرفة العناصر المكونة للنص، والكشف عن العلاقات التي كانت قائمة بينها، وذلك ما يوصل إلى الكشف عن التداخل الحاصل بين مختلف الأجناس داخل النص. وهو ما يفضي بالقراءة إلى اكتشاف التنوع الموجود في النص، وهذا التنوع يفتح قراءة النص على التأويل.

وبذلك يمكن أن نعتبر مع بارت أن << **النص حقل منهجي**>>[20]، فهو يتعدى أن يكون تسمية معبرة عن متصور إبداعي، إلى كونه مرتكزا مفهوميا، تتأسس عليه ظاهرة تداخل الأجناس الأدبية.

إذ << **النص كون مفتوح**>>[21]، بإمكانه أن يحمل سلسلة من الروابط، تكون فاتحة لكل قراءة أو تأويل.

إن ما يمكن أن يخلص إليه البحث في قضية النص كتأسيس نظري لتداخل الأجناس هو:

1- يتميز النص بالتعدد، وهو ما يجعله مجالا مفتوحا، تتجلى في كيانه العديد من الظواهر، ومن أهمها تداخل الأجناس الأدبية.

2- يعكس النص في نظامه البنائي مفاتيح قرائية. أودعها المبدع لحظة الإبداع والكتابة. ويستلهم منها القارئ مسارات التأويل، لحظة القراءة والتأويل.

3- تبرز ظاهرة تداخل الأجناس، كمعطى نصي، لا يمكن لمفهوم النص بصورته التقليدية القائمة على اعتبار النص معبرا عن جنس أدبي، يحمل من الخصائص الفنية، ما يعطيه الانتماء وإنما يتم توسيع مفهوم النص بما يتلاءم وطبيعة الإبداع الجديد، المتسم بظاهرة تداخل الأجناس. ومنه شاع مصطلح النص، << **وإن تسْعَ نظرية النص إلى إلغاء تمايز الأجناس الأدبية والفنون، فذلك لأنها لا تنظر إلى الآثار الفنية كرسائل بسيطة ولا حتى كملفوظات، ولكن كإنتاجات مستمرة العطاء** >> [22]، عن طريق مجموعة الفاعلين؛ المؤلف، والنص، السياق، القارئ.

4- لئن قامت النظرية الكلاسيكية على مقولة الجنس كمنظم للإبداع، فإن النظريات ما بعد الكلاسيكية، تقوم على مقولة النص، كمرتكز بديل، يؤسس لتحولات الإبداع، ويرسم خرائط النقد، ويؤسس لظاهرة تداخل الأجناس الأدبية.

ثالثا: التناص:

يعد التناص من أهم المفاهيم التي فتحت النص على العديد من الرؤى والتصورات. ووسعت من مجال الإدراك للنص الأدبي. وذلك ما جعل الدراسات ما بعد البنيوية تنظر إلى الإنتاج الأدبي من وجهة نظر تناصية.

ولذلك نتساءل: هل يمكن أن يعتبر التناص أساسا تستند عليه ظاهرة تداخل الأجناس في الأدب عموما، وفي الشعر على وجه الخصوص باعتباره موضوع دراستنا التطبيقية؟ وما هي الآفاق التي تفتحها مقولة التناص للنص الشعري بالنسبة لإنتاجه أو تلقيه ؟

يعتبر التناص من أهم المفاهيم التي ارتكزت عليها النظرية النقدية المعاصرة، لما أحدثه من تحول في النظرة إلى النص، إذ نقله من انغلاق البنية في الدراسات البنيوية، إلى انفتاحها على مختلف السياقات في الدراسات ما بعد البنيوية.

والتناص كمصطلح ومفهوم، برز في أواخر الستينيات من القرن العشرين، على يد جوليا كريستيفا Julia Kristeva. والذي استلهمته بدورها من أعمال ميخائيل باختين Mikhail Bakhtin في مقالها الذي صدر عام 1966م، والذي يحمل عنوان: " الكلمة والحوار والرواية". وفي مقالات وكتب أخرى ظهرت بعد هذا التاريخ من أوائل السبعينيات.[23]

وتعرف جوليا كريستيفا " التناص" انطلاقا من النص، بقولها << **يتكون كل نص كموزاييك من الاستشهادات، كل نص هو امتصاص وتحويل لنص آخر** >>[24].

ورؤية جوليا كريستيفا للنص هو الذي جعلها تتوصل إلى مفهوم "التناص"، إذ أنها نظرت إلى النص باعتباره إنتاجية. وهذا يعني حسبها أمرين: << **أولهما: أن علاقة اللغة التي يكون متموقعا فيها هي علاقة إعادة توزيع (تدميرية – تشييدية)، ومن ثم تمكن مقاربتها بطريقة**

أفضل من خلال المقولات المنطقية، وليس بالأحرى المقولات اللغوية؛ وثانيها: أنه يكون أي نص إبدالا للنصوص، أي تناص في فضاء نص معين تتقاطع وتتعدل منطوقات متعددة مأخوذة من نصوص أخرى >>[25].

وإنتاجية النص لا تتعلق فقط بالعمليات المنطقية التي تربط بين مكوناته التركيبية وإنما يصبح النص قابلا للقراءة والتأويل. ومنه التجدد والاستمرارية، فيعاد إنتاج النص بقدر عدد القراء الذين يمارسون عليه فعل القراءة. ولا يتم ذلك، إلا بما يحضر في النص من نصوص أخرى، تتداخل معه، حاملة من الدلالات بمقدار ما يتسلح به القارئ من معارف وآليات. ويغدو النص في طابعه الملموس كأثر فني واحد، ولكنه متعدد في حقيقة الأمر، بقدر ما يتسلل إليه من نصوص.

وقد اعتبر رولان بارت أن << **كل نص هو تناص، والنصوص الأخرى تتراءى فيه بمستويات متفاوتة، وبأشكال ليست عصية على الفهم بطريقة أو بأخرى، إذ تتعرف نصوص الثقافة السالفة أو الحالية: فكل نص ليس إلا نسيجا جديدا من استشهادات سابقة** >>[26].

إن هذا المفهوم الموسّع للتناص، يجعل النص قاعا لتداخل العديد من النصوص والخطابات. وهذا التداخل لا يحد من طبيعة هذه النصوص، أو انتمائها إلى أجناس أدبية أخرى، وإنما يجعله مفتوحا على كل احتمال.

سواء كانت النصوص المتداخلة من طبيعة جنسية واحدة، أو من أجناس مختلفة فإن مصطلح التناص يشملها جميعا. ولذلك اعتبر رولان بارت – وهو من المنتصرين لمقولة التناص والموسعين لمداها المفهومي- أن << **التناصية قدر كل نص، مهما كان جنسه** >>[27]. وذلك ما يجعل الدارس يجد تناصا بين الأعمال الأدبية المنتمية لنفس الجنس الأدبي حسب وجهة النظر الكلاسيكية, كما أنه يجده بين الأعمال الأدبية المنتمية إلى أجناس مختلفة. ففي الرواية الجديدة مثلا يحضر الشعر والأسطورة، ويختلط الواقع بالخيال، ويسيطر على الأحداث التداخل بين الكوميدي والتراجيدي، والشأن نفسه في النص الشعري المعاصر الذي يتأسس على الحوار والسرد، وغيرها من الظواهر التي

ستكون مجالا للبحث والدراسة في الجزء التطبيقي *.

إنّ ما يمكن أن يتوصل إليه البحث في علاقة التناص بتداخل الأجناس الأدبية هو:

1- إن التناص هو المقولة التي تحكم النصوص البشرية عموما. فلا وجود لنص بكر. ولا وجود للغة لم تتلوث بآثار من استعملها من قبل. فكل نص هو تناص.

2- اعتبرت جوليا كريستيفا النص بأنه << **جهاز عبر لساني يعيد توزيع نظام اللسان عن طريق ربطه بالكلام التواصلي** >>[28]، ولا يتعمق ذلك إلا بما يحضر من نصوص في هذا النص.

3- يتمثل التناص في النصوص التي تحضر في النص بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

4- إن العلاقات بين نص ونصوص متداخلة معه هي العلاقات التي يقوم عليها التناص.[29]

5- تسمو الظاهرة النصية القائمة على تداخل النصوص إلى أن تصبح فضاء لتداخل الأجناس الأدبية. ويكون التناص مرتكزا معرفيا لتداخل الأجناس. فهو الكفيل بكشفها ومعرفة مدخلاتها. إذ أن مفهوم التناص، يتسع من كونه حضور نص من نصوص غائبة، في نص حاضر، إلى كونه فضاء تتداخل فيه المكوّنات البنائية لأجناس مختلفة في نص جديد، يتسم بظاهرة تداخل الأجناس الأدبية.

6- كل نص هو تداخل لنصوص. وكل جنس هو تداخل لأجناس، انطلاقا من مقولة التناص.

يستند كل فعل إبداعي إلى خلفية معرفية، وهي التي تسمح بتأصيل رؤاه، وتجذير موقعه في الساحة الإبداعية. وما يمكن أن يتوصل إليه البحث في أسس تداخل الأجناس الأدبية، في النقد المعاصر هو استناد الظاهرة إلى جملة مقولات ومبادئ مثلت الإطار النظري لهذا التأسيس. والمتمثلة في:

- الحوارية: فكل نص، مكتوب أو منطوق، لا يمكن فهمه إلا على أنه في تحاور مع نصوص أخرى. يبدأ هذا التحاور داخل النص. وينتقل إلى النصوص. ويتجاوز ذلك إلى الأجناس الأدبية، كما بين ذلك ميخائيل باختين.
- تعدد الأصوات: والذي بموجبه تتحطم كل التقاليد الفنية الموروثة، وتتأسس تقاليد جديدة للإبداع ، سمتها التداخل في كل شيء، كما عند دوستويفسكي.
- النص: إذ يمكن << **ضبط النص وتحديد مقوماته ومرتكزاته، وتقعيد بنياته الدلالية والفنية والوظيفية من خلال الثبات والتغير**>>[30]، وهو ما يجعل النص متمردا على التصنيف، ضمن جنس بعينه، ويكون فضاء لتداخل الأجناس الأدبية، بل يصبح النص بديلا عن الجنس.
- التناص: ذلك أن التناصية قدر كل نص مهما كان جنسه، كما يقول بارت، ومثلما حمل التناص مبدأ تداخل النصوص فإنه يتسع ليشمل تداخل الأجناس.

وخلاصة القول أن حضور الخصائص الفنيّة لجنس أدبي في جنس أدبي آخر, حوَّل النظرة إلى الإبداع الأدبي من نقاء الجنس إلى تداخل الأجناس, وهذه الظاهرة الإبداعية تستند إلى جملة مقولات نقدية تمثّل في الحوارية وتعدد الأصوات والنّص والتناص, وهي بمثابة مفاتيح قرائية تؤطّر النقد وتوجّه الإبداع.

الهوامـــــش و المراجـــع

[1] . ميخائيل باختين: شعرية دوستويفسكي، ترجمة جميل نصيف التكريتي، مراجعة حياة شرارة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ودار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط1، 1986م، ص 270.

2 ـ ميخائيل باختين: الماركسية وفلسفة اللغة، ترجمة محمد البكري ويمنى العيد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1986م، ص 117.

3 ـ المرجع نفسه، ص 129.

4 ـ ميخائيل باختين: شعرية دوستويفسكي، ترجمة جميل نصيف التكريتي، ص 26.

5 ـ Mikhail Bakhtine: esthétique et théorie du roman, éd Gallimard, Paris 1978, p 173 نقلا عن بسمة عروس: التفاعل في الأجناس الأدبية، مشروع قراءة لنماذج من الأجناس النثرية القديمة، دار الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2010م، ص 83.

6 ـ رومان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة جابر عصفور، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1998م، ص 39.

7 ـ المرجع السابق، ص 182.

8 ـ ميخائيل باختين: شعرية دوستويفسكي، ترجمة جميل نصيف التكريتي، ص 11.

9ـ المرجع نفسه، ص 11.

10 ـ بسمة عروس: التفاعل في الأجناس الأدبية، مشروع قراءة لنماذج من الأجناس النثرية القديمة، ص 86.

11 ـ المرجع نفسه، ص 10.

12 ـ ميخائيل باختين: شعرية دوستويفسكي, ترجمة جميل نصيف التكريتي, ص 387.

13 ـ الأزهر زناد: نسيج النص، بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ص 12.
14 ـ ينظر، إبراهيم خليل، في نظرية الأدب وعلم النص، بحوث وقراءات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010م، ص 220، 222.
15 ـ المرجع نفسه، ص 220.
16 ـ رولان بارت: من العمل إلى النص، ترجمة محمد خير البقاعي، ضمن كتاب دراسات في النص والتناصية، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سورية، ط1، 1998م، ص 15.
17ـ يقول رولان بارت: << النص متعدد >>، المرجع نفسه، ص 15.
18ـ المرجع نفسه، ص 16
19ـ المرجع نفسه، ص 14.
20ـ المرجع نفسه، ص 10.
21ـ أمبرتو إيكو: التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة وتقديم سعيد بن كراد، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط2، 2004م، ص 42.
22 ـ رولان بارت: نظرية النص، ترجمة محمد خير البقاعي، ضمن كتاب دراسات في النص والتناصية، ص 44.
23 ـ ينظر: مصطفى بيومي عبد السلام، التناص ... مقاربة نظرية شارحة، مجلة عالم الفكر، العدد 1، المجلد 40، يوليو- سبتمبر، 2011م، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص 63.
24 ـ ليون سمفيل: التناصية، ترجمة محمد خير البقاعي، ضمن كتاب دراسات في النص والتناصية، ص 93.
25 ـ المرجع السابق، ص 80.
26 ـ رولان بارت: نظرية النص، ترجمة محمد خير البقاعي، ضمن كتاب دراسات في النص والتناصية، ص 38.
27 ـ المرجع نفسه، ص 38.

* ـ سيفرد مقال ثان يتعلّق بالمظاهر الفنيّة لتداخل الأجناس الأدبية في الشعر الجزائري المعاصر, يخص بالدراسة البنية السردية, والبناء الدرامي, والتصوير المشهدي باعتبار هذه العناصر تتأسس على الحوارية وتعدد الأصوات والنص والتناص.

28 - J. Kristeva, pour une sémanalyse sémiotique, seuil, 1969, p 52
نقلا عن نور الهدى لوشن : التناص بين التراث والمعاصرة ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج15، عدد 26، صفر 1424هـ، المملكة العربية السعودية، ص 1019.

29 ـ ينظر: نور الهدى لوشن: التناص بين التراث والمعاصرة ، ص 1019.

30 ـ جميل حمداوي: إشكالية الجنس الأدبي ، موقع
http://www.alwarsha.com/articles بتاريخ: 2011/02/08م.